

إصط هنا لإزالة التظليل

هابرماس في دفاعه عنها: الحداثة ما تزال المشروع الإنساني العقلاني الذي لم ينجز بعد .. بقلم : صرار بني ياسين



تداول القرن العشرين العديد من المدارس والتيارات الفكرية والفلسفية التي فقدت إيمانها وثقتها في المشروع الحضاري الإنساني للحداثة والتنوير في طبيعتهما الغربية. ذلك ان هذا القرن المشحون بالحروب والكوارث التي لحقت بالعالم تزعزع فيه الإيمان بالقيم والمبادئ التي دعا إليها عصر التنوير المنبثق من الفتوحات الحداثية، وأصبحت مقولات مثل الحرية والعدالة والنزعة الإنسانية هزواً لمفكري ما بعد الحداثة النقيدين الذين نعو اليوتوبيا التي طالما تغنى بها المثقفون منذ القرن الثامن عشر.

ومنذ أوائل القرن ظهرت فلسفات متشائمة حول المسار التاريخي للتقدم، فقد اعتقد شينلجر أن الغرب أفلس فكربا، وأن الحضارة الغربية صائفة الى التدهور والانحطاط أمام تفشي النزعة الكولونيالية والميل الى الحروب والنزاعات، وكان العقلانية فقدت صوابها او انها عقلانية كشفت عن حقيقتها بتحالفها مع القوة والنفوذ وتخلت عن شرطها الإنساني الأخلاقي.

وعند انتصاف القرن درجت أفكار البنيوية وما بعد البنيوية والتفكيكية التي عمدت الى تقديم نقد جذري للعقل والتقدم والحرية، واتهمت الحداثة الغربية بالإفلاس والفشل، وأنها وصلت الى مصائر مأزومة وانحرافات يصعب الدفاع عنها، لأن العقل سيوصف مع هذه التحولات بأنه اقل معقولة مما كان يظن الكثيرون الذين اعتبروه

ضامنا نزيها للمبادئ الإنسانية التي قام على أساسها المشروع الحضاري الغربي. عندئذ دشنت نظرية ما بعد الحداثة مشروعها النقدي ضد الحداثة.

وابتداء من بنويوية كلود ليفي شتراوس، تم دحض الاعتقاد بمركزية وتمامية العقلانية الأوروبية، المرتكزة الى بدهة مغشوشة مفادها أن العقلانية في نسختها الأوروبية تمثل الذرى النهائية للتطور، وأن قدرها ان تكون الأنموذج او الرأسمال المشترك الحتمي لجميع أفراد الجنس البشري. وقد كشفت الدراسات الانثروبولوجية التي أجراها شتراوس عن الصيغة العقلانية الكامنة في نظرة القبائل الإفريقية البدائية نحو العالم، وعن الوظيفة العقلانية للأساطير والطقوس الطوطمية، والتي تكشف عن نظرة كوزمولوجية وعن سعبي نزيه لتنظيم العلاقة بين الإنسان والطبيعة والعالم، تماما مثلما تفعل العقلانية التطبيقية في مجال العلم الحديث.

واظهر شتراوس استقامة المنطق العقلاني الكامن في منظومة السحر والطقوس والشعائر التي يقيمها البدائيون، وهو منطق يوازي في وظيفته وظيفة التنظيمات السياسية والاجتماعية والمدنية الغربية من حيث السعي الى الحفاظ على هوية الجماعة وتحقيق التضامن بين أعضائها. وجاءت أعمال ميشيل فوكو لتفضح العلاقة المضمره او الخفية التي تظهر حالة تحالفه بين طرفي خطاب المعرفة ومنطق السلطة في العلوم الإنسانية الغربية، الأمر الذي أدى به الى نبذ العقلانية الزائفة التي تستتر بلبوساتها هذه العلوم المدعية العلمية والمنهجية، والنظرة الموضوعية، والصدق المعياري. كما جاءت أبحاث دريدا التفكيكية لتصب في هذا الاتجاه وتعمل على زعزعة اليقين المهيمن حول كلية/كليانية العقل وشموله عبر ما يسمى مركزية اللوغوس.

وفي ظل تصاعد الهجوم من رموز تيار ما بعد الحداثة ضد الحداثة عبر وصمها بالفشل والإفلاس وذلك ابتداء من ستينيات القرن العشرين وسبعينياته، كان ثمة مفكر معاصر يختلف في الفكر والرؤى النقدية عن نقاد تيار ما بعد الحداثة، فهو وان كان يتفق معهم في مبدأ نقد الحداثة للمصائر التي آلت إليها، إلا أنه يعلن فقدان إيمانه بها وبإمكانية تصويب مسارها التاريخي، لأنها مشروع غير منجز، وبالتالي فهو مفتوح بانفتاح العقل نفسه.. كان ذلك هو الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس الذي يعد من ابرز فلاسفة الجيل الثاني في مدرسة فرانكفورت.

عمل هابرماس منذ الخمسينيات على تأسيس اتجاه فلسفي جديد، يوائم بين الرؤية النسقية الشاملة التي تمتاز بها العلوم الاجتماعية، وتعد نظريته مراجعة شاملة للأفكار التي انتهت إليها مدرسة فرانكفورت بعد الحرب العالمية الثانية، إذ إن هذه الأفكار تنسجم مع أفكار تيار ما بعد الحداثة في عملية النقد الشامل للعقل والعقلانية الغربية وفقدان الإيمان بكل من مبادئ التنوير وقيم النزعة الإنسانية. ووصم الحداثة الغربية بأنها ليست سوى عقلانية أداتية تنهض على حساب الإنسان والمجتمع والتقدم.

(2)

يتميز مشروع هابرماس الفلسفي بطرح نظرية خاصة في التطور الاجتماعي تعطي الأولوية لتطور الأنساق المعيارية، وإبراز كل نسق معياري لكل مرحلة يمر بها المجتمع في تشكيل مؤسساته السياسية والقانونية، وذلك كبديل للأولوية التي أعطتها المادية التاريخية للبناء التحتي الاقتصادي في تشكيل البناء الفوقي. ويقصد هابرماس بذلك تقديم اعتقاد مفاده أن للمعايير والعلاقات الاجتماعية منطقا خاصا في التطور مستقلا عن مستويات التطور الاقتصادي التي تمر بها المجتمعات.

ومن هنا، فإن هابرماس ينظر الى العقلنة على انها نوعان او شكلان؛ عقلنة تنزع الى توسيع نطاق الفعل الأداتي في مجالات الإنتاج المادي والتقني، وعقلنة أخرى تنزع الى تعميق التجربة الإنسانية عبر ما يسميه توسيع نطاق الفعل التواصل في مجال الأخلاق والحياة الاجتماعية، أي إلى أسنة النتائج العقلانية. وإن تطور الأنساق المعيارية للمجتمعات وتنامي وعي هذه المجتمعات بذاتها ووعي الأفراد بذواتهم منوط بمدى توسيع نطاق الفعل التواصل المستند الى التفاعل الاجتماعي والتفاهم المتبادل بين الذات.

هدفت رؤية هابرماس الى تقديم تصور جديد ومغاير لعملية التحديث التي تسير وفق نسق مغلق يخلق دائما عقلانية أداتية باردة او جامدة، وتقديم نموذج آخر من نماذج العقلنة المسماة العقلانية التواصلية التي تعتمد على مفهوم العقل التواصل، وذلك استعاضة عن نموذج مدرسة فرانكفورت الذي فسر عملية التحديث الجارية في الغرب على انها عقلانية أداتية فقط. وهذه الرؤية التي يقدمها هابرماس هي التي ينبغي مواجهتها مع فكر تيار ما بعد الحداثة الذي يؤكد فشل مشروع الحداثة وإفلاسه.

(3)

يرى هابرماس ان الرؤية القاصرة لدى فلاسفة ما بعد الحداثة ونقادها تتمثل في أنهم لم يعكفوا النظر إلا إلى الآثار السلبية التي أنتجتها عملية التحديث الاقتصادي والتقني، الأمر الذي جعل ذلك بمثابة سقوط لمشروع الحداثة وإعلان

إفلاسه، بينما تقوم رؤية هابرماس على إعادة الثقة بالحادثة عن طريق الكشف عن طريق حداثية أخرى في التقدم تعتمد على مفهوم العقل التواصلي الذي من شأنه ان يعمل على زيادة العقلنة الاجتماعية في مجال الأخلاق والقانون، وبشجع ظهور تنظيمات ديمقراطية وقوانين وضعية فعالة.

ويرى هابرماس ان العقلانية التواصلية التي ينادي بها، تنظم عملية التفاعل بين الناس وتشكل فهم الجماعة لذاتها، ويتجلى هذا النوع من العقلانية في المجالين الأخلاقي والسياسي. ويقيم هابرماس العقلانية الأداة التواصلية على أساس فهمه لطبيعة النشاط الإنساني. فبينما فهم ماركس الممارسة الإنسانية (البراكسيس) على انها عمل فقط، فهم هابرماس ذلك على انه عمل وتفاعل في الوقت نفسه. والفرق بين الفهمين كبير جدا، فمقولة العمل تحدد علاقة الإنسان بالمادة والعالم الخارجي، بينما مقولة التفاعل تحدد طبيعة علاقة الناس بعضهم بعض.

واستنادا الى نظريته في العقلانية التواصلية، قدم هابرماس تحليلا لعملية التحديث او العقلنة التي تمت في الغرب ابتداء من عصر النهضة، ففي الوقت الذي ركز فيه ماركس وبيبير على جانب واحد من عملية التحديث وهو الجانب الأداة او الوظيفي المسؤول عن تطور قوى الإنتاج بحسب ماركس، وظهر أشكال أكثر عقلانية في السلطة وهي السلطة البيروقراطية بحسب بيبير، أعلن هابرماس أن عملية العقلنة التي حدثت على مستوى الاقتصاد والسياسة ليست سوى جانب من العقلنة، أما الجانب الآخر فهو عقلنة حدثت على مستوى عالم الحياة المعاشية، وأدت الى زيادة التطور في الوعي الأخلاقي والانتقال من رؤية العالم الميتافيزيقية اللاهوتية الى فكرة الحق الطبيعي وتجسيدها في دساتير الدول الحديثة وقوانينها.

وبالنسبة لهابرماس، فإن المشكلة الأساسية للتحديث هي ان العقلنة في مجال الاقتصاد والسياسية (أي العقلانية الأداة) قد حصلت بمعدلات متسارعة جدا، الأمر الذي ترك آثارا سلبية على العالم المعاش، وبذلك طغى الاقتصاد على كل الجوانب الأخرى من الحياة.

ويقدم هابرماس تفسيراً جديداً لمظاهر اللامعيارية التي وصفها دور كايم، والاعتراب والتشؤم بحسب تفسير ماركس، وظاهرة فقدان الحرية والمعنى واليقين في الحداثة الأوروبية عند بيبير، حيث اعتقد هابرماس ان هذه الظواهر عبارة عن سلبيات ناتجة أساسا عن حالة التناقض بين عملية العقلنة الأداة والعقلنة التواصلية.

أثمرت جهود هابرماس في حوار مع فلاسفة ما بعد الحداثة، عن صدور كتابه المشهور الخطاب الفلسفي للحداثة، وتناول فيه نقد أفكار فوكو، ودريدا وهيدغر، وهوركهايمر، وادرنو، وغيرهم. والواقع ان خلاف هابرماس مع مفكري ما بعد الحداثة لم يظهر مع هذا الكتاب فقط، بل سبقته جهود في هذا المجال. فقد توضحت معالم أفكار ما بعد الحداثة في كتاب فرانسوا ليوتار الوضع ما بعد الحداثي، والذي قدم فيه ليوتار نقدا لمشروع هابرماس الفلسفي، الأمر الذي دفع هابرماس الى الرد عليه في مقال سنة 1980 بعنوان الحداثة، مشروع لم يكتمل، وهو سابق على كتابه الخطاب الفلسفي للحداثة.

(4)

دأب فلاسفة ما بعد الحداثة على تنفيذ النظرة المنطلقة من عقل الحداثة التي تفسر التاريخ باعتباره مسيرة التقدم نحو الحرية والنزعة الإنسانية، وأعلنوا انتهاء السرديات أو الفلسفات التي تزعم أن حركة التاريخ هي في صعود مستمر. ورأى ليوتار ان كل النظريات التحقيقية العامة للتاريخ ليست سوى أيديولوجيات زائفة، فما تزعمه هذه النظريات حول اتصال التاريخ في خط واحد هو مجرد وهم. ولكن نظرية هابرماس ليست فلسفة في التاريخ إلا من زاوية انها نظرية في التطور الاجتماعي، التي تحاول شرح طبيعة التحولات التي جرت لعقلنة الحياة في الغرب من جهة، والكشف عن الاتجاهات التي تسير فيها العقلانية الغربية. فهي فلسفة في التاريخ من حيث انها ترنو الى تشخيص مسارات عامة كبرى في تاريخ الغرب.

وجاء حكم ليوتار على فلسفات التاريخ البورجوازية منها والماركسية، بأنها ميتافيزيقية، بسبب محاولتها إخفاء نظام نسقي صارم للأحداث، بغرض إثبات صعودها نحو غاية مثالية، سواء تمثلت هذه الغاية في اعتناق البشرية من أسر الطبيعة بفك قوانينها وأسرارها أو التحرر الإنساني المتمثل طبقة البروليتاريا.

يوجه هابرماس نقده لهذا الحكم السابق، فيؤكد ان النظريات العامة في التاريخ ليست ميتافيزيقية لمجرد كونها نظريات كلية او عامة، أو بسبب طابعها النسقي المبالغ فيه، وإنما لكونها تنظر الى نفسها باعتبارها خطابا ينطوي داخل ذاته على مصداقية نابعة منه، وبالتالي لا يعوزه اختبار من خارجه لإثبات صحته ومصداقيته، ويعد نفسه فوق الإثبات او النفي التجريبي الذي يميزها.. فهي ليست سوى إطار عام يفتح على الإيستومولوجيا التكوينية عند بياجيه ونظريات دوركايم وبارسونز في التساوق بين تطور الوعي الأخلاقي عند الفرد وتطور النظرة الى العالم في المجتمع.

وقد رأى هابرماس ان الطريق المثلى للدفاع عن مشروع الحداثة هي الطريق

التي تسعى الى تقديم تصور واضح عن الحداثة ذاتها، ومحاولة إثبات ان خطاب ما بعد الحداثة ما هو إلا احد الخطابات الكثيرة التي ظهرت حول الحداثة ابتداء من هيغل، والتي أخذت على عاتقها تأسيس تصور فلسفي عن الحداثة. والحقيقة عند هابرماس ان كل هذه الخطابات ترجع في أصولها الى هيغل، الذي سبق وان قدم أول تلخيص فلسفي للحداثة. ثم تفرع عن هيغل اتجاهان، احدهما يميني والآخر يساري، وكل منهما يسعى الى تقديم تصور مختلف عن الحداثة، انطلاقا من هيغل نفسه.

أما النقد الذي وجهته ما بعد الحداثة لمفاهيم الذات والعقل والوعي وكذلك لمبادئ التنوير، كالحرية والعدالة والمساواة، فهو بالنسبة لهابرماس نقد يشتق أسسه من نيتشه، لأنه أول من بدأ هذا النوع من النقد الشامل، ومن ثم فإن فلاسفة ما بعد الحداثة حذوا حذو نيتشه، ولكن هابرماس يعتقد ان الحداثة لا يمكن تجاوزها او نقدها انطلاقا من خارجها كما يدعي فلاسفة ما بعد الحداثة الذين بحسب هابرماس ينطلقون من منطلقات اليمين واليسار الهيغلي.

(5)

يحلل هابرماس فضاء خطاب ما بعد الحداثة ضد الحداثة، حيث يؤكد انه طوال القرنين التاسع عشر والعشرين انطلقت مجموعة من الخطابات الفلسفية حاولت تقديم تصور عن الحداثة انطلاقا من احد اتجاهات الشباب الهيغلي، الدين او الدولة او الاشتراكية، أو العلم الحديث، أو الفن أو الفلسفة، ويؤكد هابرماس ان عالم الاجتماع الأميركي دانيال ليل هو احد المفكرين الذي شدوا على دور الدين في إنقاذ مشروع الحداثة. فقد أسهب هذا في تشخيص جذور الأزمة الثقافية للرأسمالية، واعتقد ان الحداثة لم تعد قادرة على الحفاظ على قيم الفردية وعلى أسس التسانن الاجتماعي، وان الحل الوحيد بنظره يتمثل في علمية إحياء ديني من شأنها ان تمد الأفراد بدرجة مقبولة من الوعي الجمعي الحقيقي.

كما اظهر هابرماس بعض وجهات النظر الأخرى لتصويب حالة الوعي الحديث لدى الفرد من خلال نموذج الفن باعتباره القادر على الإحياء بنظرة جديدة الى العالم وبوصفه محفزا لحس فردي جديد. فقد بين ان بعض فلاسفة ما بعد الحداثة نظروا الى الوظيفة الكبرى التي يلعبها الفن وكشفه عن معنى الحياة الإنسانية، وأبرز مثال على هؤلاء فوكو. أما نقد هابرماس لفوكو وغيره من أتباع تيار ما بعد الحداثة فيتركز على أن هؤلاء جميعا يعودون الى نماذج فكرية معروفة في تاريخ الفكر الغربي ليؤسسوا خطابهم النقدي ضد الحداثة وقضاياها. فمنهج فوكو الجينالوجي الذي تتبع من خلاله أصول العلاقة بين السلطة والجنس والأخلاق في أوروبا منذ اليونان كما جاء في كتابه تاريخ الأخلاق هو منهج نيتشه نفسه في جينالوجيا الأخلاق. أما نقده للعقل من خلال كتابه الكلمات والأشياء، فقد جاء نقدا شموليا أو كليانيا للعقل، وهو نقد بالنسبة لهابرماس يصل الى حد العدمية، ومثل هذا النوع من النقد مارسه نيتشه من قبل. كما قدم هوركهايمر -وهو من فلاسفة مدرسة فرانكفورت- نقدا كليا للعقلانية، ورأى انها إعادة صور الطغيان القديمة.

قدم تيار ما بعد الحداثة نقدا عنيفا للحداثة، وتصور انها لم تعد مشروعا مأزوما. ليس هذا فقط، وإنما منيت بالفشل من جهة الوعود الكبرى التي وعدت بها في الحرية والمعنى والقيم والتقدم. بل انها دمرت هذه الوعود. فجاء هابرماس ليعلن ان الحداثة ما تزال المشروع الإنساني العقلاني الذي لم ينجز بعد، وأنها تبقى حاملة له، وما يلزمها فقط هو تصويب مساراتها عبر المزيد من الجهود النقدية الفلسفية.

* باحث أردني